الأستاذ : الدكتور بك محمد
قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة باجي مختار عنابة

المستوى : أولى ماستر
المقياس : العلاقات الجزائرية المغاربية والمشرقية
ملاحظة : تناول الأستاذ في أربع محاضرات سابقة مع الطلبة علاقات الجزائر السياسية والاقتصادية مع بلدان المغرب العربي وفي هذه المحاضرات تتضمن العلاقات الجزائرية المغاربية الاجتماعية والثقافية .

المحاضرة الأولى

العلاقات الاجتماعية بين الجزائر وتونس

إن الروابط الاجتماعية تمثل بوضوح إحدى صور التواصل والترابط بين شعبي الايالتين الجزائر وتونس ، وقد ساهمت عوامل عديدة في توطيد العلاقات الثقافية والاجتماعية مثل العوامل الجغرافية والتاريخية والحضارية والدينية رغم وجود بعض العوائق مثل النزاعات السياسية والاحتلال الاسباني لبعض المدن والمناطق لكنها أثرها على بناء واستمرار العلاقات الثقافية والاجتماعية لم يكن كبيرا وعميقا.

أثر قبائل الحدود على السلطة : إن أهم نموذج الذي يجسد هذا الدور بشكل واضح وبفاعلية كبيرة يتمثل في قبيلة الحنانشة الكبرى ، ولها ثلاثة فروع الشاوية وهوارة وإخوانهم أداسة وعرب بني هلال وبني سليم لها تواجد في البلدين ، وقد ظلت تحركاتها تشكل ضغطا مستمرا على السلطة في الجزائر وتونس حيث بدأ منذ عهد الأسرة المرادية من خلال مساندتها لأحد أطراف النزاع في الحرب التي نشبت بين محمد باي الذي استمال الى جانبه الحاج المرادسي شيخ قبيلة الحنانشة فرع أولاد نصر ضد عمه محمد الحفصي ، وظهر دورها مجددا مع قيام النزاع عن السلطة بين محمد باي وشقيقه علي باشا الذي صاهر هذه القبيلة وتزوج من ابنة سلطان بن منصر وتمكن بعدها من تحقيق الانتصار والوصول الى سدة الحكم سنة 1677م. وكان لها دور في التي اندلعت بين الحسين بن علي وابن أخيه علي باشا حيث انضم الشيخ بوعزيز شيخ اولد نصر الى جانب علي باشا بينما انضم شيخ الحنانشة من مناصر الشيخ أحمد الصغير الى حسين باي والتي انتهت بقتله 1740م .

وقد تمردت هذه القبيلة على سلطة باي قسنطينة على خوجة باي (1692 م – 1700م) عام 1694م بسبب تحريض باي تونس محمد باي ورفضت أداء الضريبة والتي انخفضت الى 30000 ايكو ، وتتجلى تدخلاتهم أيضا من خلال دعم حملة مراد الثالث (بوبالة) على قسنطينة سنة 1700م وكان لها الأثر البالغ على الايالتين . وقد تعرضت هذه القبيلة للضغط والحرب من طرفي السلطة تونس والجزائر في بعض الفترات كما حدث في 1714م و1724م حيث دفعت نتيجة تمردها خسائر تجاوزت 8000 جمل وعدد من الأبقار والأغنام. كما كان لبعض القبائل الأخرى تأثيراتها الواضحة على العلاقة بين البلدين ، كصراع الشعانبة مع بني يزيد ، إضافة الى تجاوزات بعض القبائل للحدود مثل الاعتراض الذي قدمه الحاج أحمد باي لحسين باي على تجاوز قبيلة ورغة للحدود المتفق عليها. وقد تعلن قبيلة ما ولائها لبلد على حساب بلدها الأصلي كما حدث لشيخ أولاد يحي الزين بن يونس الذي تمرد على سلطة باي الشرق في 1826م.

وكان لبعض القبائل دور في تأجيج الصراع بين الايالتين كما حدث في النزاع عن الحدود 1614م و1628م حيث لعبت قبيلة بني شنوف والحنانشة دورا كبيرا فيه وقد انتهى بإبرام اتفاقية ترسيم الحدود. وقد تلجأ بعض القبائل لحمل السلاح لاسترداد حق ضائع كما حدث للنزاع بين قبيلة طرود في الصحراء مع سلطة باي تونس في 1619م .

دور المصاهرة والهجرة في تقريب سكان الايالتين:

أ) المصاهرة : سهمت في توطيد العلاقات بين الأسر والقبائل ومن الأمثلة عائلة الجديدي التي تنسب الى محمد الجديدي الفحقي القيرواني السالمي صاحب زاوية في القيروان سكن سوف وتزوج من أولاد

يوسف وأصبح عضوا في العائلة. أولاد حداد وهم من أولاد عبيدي وقد تزوج أبوالقاسم الحداد مسعودة بنت سيدي مسطور وانتسب الى سوف ، أما الاميهات ينسبون الى محل يسمى بأميهة قرب نفوسة بقابس وجاء حدهم الاميهي الى سوف وينتمي اليه أولاد ميداني وأصلهم من نفطة ، فصيلة النوابلية جاءت من نابل بسوسة ، الشراردة وأصلهم من وزر واستوطنوا سوف ، العوامر جدهم محمد وأصلهم من سوسة ، أولاد جامع أصلهم من جنوب تونس وهاجروا الى سوف .

ومن صور المصاهرة أيضا قرية جديدة القريبة من قرية سيدي عبيد تشكلت من نسيج اجتماعي متنوع ذوي أصول جزائرية وتونسية دريد ، الهمامة ، الشابية ، أولاد معافي ، النمامشة ، أولاد سيدي عبيد ، السوافة ارتبطت هذه المجموعات بعلاقات مصاهرة . وقبيلة أولاد سيدي عبيد التي بدأت لكعائلة مرابطية محدودة العدد حول منطقة قنتيس وجبل فوة لتتحول نتيجة المصاهرة الى نسيج مجتمعي متنوع باندماج قبائل الشابية والهمامة والسوافة والنمامشة وكان لها أثرها في الأحداث. وكان لها دور في اصلاح ذات البين بين النمامشة والهمامة والفراشيش ، كما للشيخ سيدي عبيد مكانة علمية ساهم في نشر المعرفة الدينية ومن العلماء الذين تتلمذوا عليه أحمد التليل وبلغيث القشاش . كما وجدت قبائل في الجزائر ذات أصول تونسية مثل العبادنة والخنافسة .

ب) الهجرة : مثل هجرة بعض الفئات العمالية الجزائرية نحو تونس كهجرة بعض الأفراد من مدن جزائرية مثل مستغانم وقسنطينة ووهران وزواوة وتلمسان وميزاب ومارسوا حرف متعددة مثل صناعة الجلود والنحاس والأسلحة وغيرها ، كما شغل بعض الجزائريين مناصب عالية في تونس مثل أحمد البراناسي الجزائري الذي تقلد منصب باش مفتي وعلي الجزيري الذي تقلد منصب سامي في دار الجند في عهد حسين بن علي. وفي الجزائر وجدت فئات تونسية شغلت مناصب ادارية سامية مثل أبو حفص عمر بن محمد الذي تولى القضاء العسكري في عهد محمد بكداش ، ومحمد زينون الذي تولى القضاء الحنفي في عهد شعبان خوجة.

ووفد الى مدينة الجزائر جماعة من أهل جربة خلال القرن 16م ووجد شارع تسمى باسم زنقة الجرابة وكذا سوق وفندق الجرابة وقدر عددهم بزهاء 300 أسرة ومارسوا التجارة وكان لديهم سفن لنقل البضائع بين المدن والبلدان. ولجأ للجزائر شخصيات تونسية معارضة مثل محمد بن عمار الفرجاني في 1812م .

وقد تلجأ بعض القبائل للهجرة لصعوبة العيش أو تهربا من ضرائب فادحة ففي سنة1781م دخلت بعض القبائل التونسية الجزائر واستوطنت مناطق قريبة من تبسة وطالب صالح باي السلط التونسية بتعويضها عن الخسائر التي قدرت ب40000 سكة . وفي 1787م فرت بعض قبائل شرق الجزائر من الضرائب كاد يؤدي ذلك الى حرب بين الايالتين. وعقب المنازعات تلجأ بعض القبائل والشخصيات الى الهجرة مثل تنقل أولاد سعيد ودريد والوزير ابن فطيمة للجزائر عقب أزمة 1705م. وعندما تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي تكثفت الهجرة الى البلاد العربية مثل تونس وطرابلس والمغرب وحتى مصر الحجاز والشام حيث هاجرت الأسر الميسورة والنافذة في البداية ثم تنوعت بعد ذلك .

إن العناصر التي تدل على التواصل بين سكان الايالتين نجد التشابه في العادات والتقاليد والأعياد مثل التشابه في العديد من الأطعمة مثل الكسكس ، وكنتيجة لاحتكاك أهل سوف بالجريد التونسي امتلكوا أدوات للطبخ مثل القدر وأطعمة جديدة . وكذلك التشابه في اللباس من مواد وكيفة صنعه ومسمياته فالرجال يلبسون في تونس والجزائر القشابية والبرنوس والشاشية والبلوزة وغيرها و النساء يلبسن الملاءة والحايك وغطاء الرأس وربما تلاحظ الاختلاف في نوعية ولون اللباس والحلي حسب المناطق والطبقات الاجتماعية .

وكذلك التشابه في طريقة الخطبة والزواج والهدايا التي تقدم والولائم التي تقام للرجال والنساء ، وفي حفلة العرس التي يحضرها الأحباب والجيران حيث تضرب الطبول وتقرع الدفوف ويدوي فيها البارود في وسط بهيج حتى تصل العروس الى بيت زوجها ، وكذلك التشابه في حرمة المرأة وعدم خروجها من بيتها إلا لأداء عمل أكيد .

وكذلك التشابه في زيارة أضرحة الأولياء فضريح الولي سيدي علي العزوز تأتيه الزيارات من كلا البلدين رغبة في نيل البركة ، وتقام الزردة من طرف الزوايا وتحضرها ناس كثير فزردة زاوية أولاد سيدي عبيد يأتيها كل من ينتمي الى هذه القبيلة من سكان الايالتين.

والتشابه كذلك في الأعياد الدينية والمناسبات الدينية مثل عيد الفطر وعيد الأضحى وعاشوراء والمولد النبوي الشريف نجد أن هناك تشابه في طرق الاحتفالات والزيارات والأطعمة التي تقدم في هذه المناسبات . وحتى في المآتم وطرق التواد والتراحم تجد تشابه كبير بين فئات السكان في الايالتين .

.....

المحاضرة الثانية

العلاقات الثقافية بين الجزائر وتونس

كانت العلاقات الثقافية بين الايالتين مزدهرة جراء عدة عوامل منها التجاور والتواصل بين العلماء ورحلات الحج والهجرات والتقارب الاجتماعي وقد تأثرت بالنزاعات والحروب بين البلدين وانتشار الأوبئة ، كما كان للطرق الصوفية مثل الرحمانية والشابية المنتشرة في مناطق وحواضر الايالتين دورها في التمازج الثقافي والديني.

العلماء الجزائريون في تونس :

من العلماء الذين قصدوا إيالة تونس تجد محمد بن الشريف الجزائري ت1738م مكث كان عالما ملما بالعلوم رحل الى المشرق ومر بتونس ، العالم المالكي أحمد بن عثمان التلمساني أصله من الأندلس نشأ في تلمسان ، توقف في تونس وجالس علماءها ثم ذهب الى الحج وفي طريق عودته أدركته المنية في مصر 1738م ، القاضي الفقيه محمد بن عبد الرحمن التلمساني قام برحلتين الى المشرق خلال القرن 18م وتوقف بتونس ، الفقيه المالكي الرماصي قصد جامع الزيتونة ونال شهرة لقب بحامل راية الفقه المالكي توفي في 1724م ، ومحمد العنابي الذي مكث في تونس ودرس علم الحديث كما أجاز العديد من علماء تونس ، وكذلك العالم الجليل أحمد البوني توفي في 1726م كان من علماء الحديث ذهب الى تونس طلبا للعلم ، أيضا عبد العزيز الثميني (1718م-808م) من واد ميزاب قصد جزيرة جربة واتصل بالعالم الاباضي يحي بن صالح وأخذ عنه العلم وكان عونا لإصلاح أحوال الناس ، العالم الاباضي ابن عبدون (1745- 1808م) الذي برع في التفسير والتاريخ قصد المشرق ومر بتونس ، وخليفة بن حسن القماري زار تونس وكان فقيها مالكيا ذو صيت ، والعلامة الفكون الذي كانت له مراسلات مع علماء تونس ، محمد الحفصي القسنطيني وكان من علماء الحديث مكث مدة في تونس وأخذ عن علماءها مثل الشيخ الكواشي التونسي ورجع الى موطنه وتولى القضاء توفي في 1811م ، ومصطفى بن الشاوش القسنطيني توفي 1836م كان أديبا فقيها سافر الى تونس طلبا للعلم ورجع الى موطنه ، محمد بن عبد الرحمن (1711م – 1794م) مؤسس الطريقة الرحمانية زار تونس والتقى بالشيخ علي بن عيسى صاحب زاوية الكاف وكان سببا في انتشار الرحمانية في تونس.

ومن أشهر الرحلات العلمية الى تونس نذكر رحلة العالم أبوراس الناصري وهو محمد بن أحمد بن ناصر الراشدي (1727م-1823م) ولد بناحية معسكر من أسرة فقيرة سافر الى مدن وبلدان عربية عديدة ومنها تونس التي زارها في رحلته الحجازية في 1790م ، مكث فيها فترة وأخذ عن علماءها أمثال الشيخ محمد بيرم وجالس الشيخ صالح الكوشي والمفتي محمد بن المحجوب واجتمع بالعالم والأديب إبراهيم الرياحي توفي 1849م والملاحظ أن حمودة باشا رحب بالناصري وأكرمه. ومن الرحلات التي تستحق الذكر رحلة الورتلاني في القرن 18م وهو العالم الحسين بن محمد السعيد (1713م – 1780م) ولد ببجاية زار بلدان كثيرة قصد تونس وجالس عدد من علماءها واشتغل بالتدريس وانتقل بين مدنها وقد وصفها في رحلته ورجع الى موطنه حتى وافته المنية. ورحلة العالم الأديب ابن عمار جاء الى تونس بقصد الاستيطان وكان عمره 70 سنة وجالس وناظر علماءها وترك مؤلفات عدة ثم عاد الى الجزائر. ومن العلماء الذين زاروا تونس في القرن 18م العالم عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش عاش في المغرب ثم توجه الى تونس واجتمع بعلمائها مثل أبي عبد الله محمد زيتونة ، وقد ترك كتبا منها رحلته الشهيرة لسان المقال ، ومن العلماء الذين زاروا تونس وكتبوا رحلاتهم الحاج بن الدين الأغواطي ومحمد الحفصي القسنطيني ، ومن الشعراء الذين وصفوا تونس

أثناء رحلاتهم مثل الشاعر محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني الذي كتب قصيدته في 1748م وكذلك الشاعر محمد بن مصائب التلمساني الذي عاش في القرن 18م الذي زار تونس وتحدث عنها.

العلماء التونسيون في الجزائر:

من العلماء الذين جاءوا لطلب العلم والتدريس وحصلوا على مناصب ومكانة تجد أبوحفص بن محمد الذي تولى قضاء العسكر في عهد الداي محمد بكداش ، وقد أيضا العالم محمد زيتونة التونسي لقب بمستجمع العلوم والمعارف (1671م – 1726م) بطلب من الداي بكداش وتولى منصب القضاء الحنفي في فترة الداي شعبان خوجة ، من العلماء أحمد بن مصطفى برناز التونسي (1664م – 1726م) يعد أكبر فقهاء المذهب الحنفي درس بجامع الزيتونة قصد الجزائر زار عنابة وقسنطينة ومنطقة القبائل وجالس علماءها ، إضافة الى العالمين محمد الشافعي الباجي وأحمد الأصرم القيرواني كان لهما دور في نشر العلم في الجزائر.

الاجازات المتبادلة بين علماء الايالتين : تجسدت المبادلات العلمية بين علماء الايالتين أيضا فيما يدعى بالإجازات والإجازة تمثلت آنذاك في شهادة الكفاءة والتأهيل يلقب بها المجاز ؛ بالشيخ أو الأستاذ ، والجدير بالذكر أن عدد علماء الجزائر الذين زاروا تونس يفوق عدد علماء تونس الذين قدموا الى الجزائر ويعود هذا لوجود كوكبة من العلماء في جامعة الزيتونة تشد لهم الرحال ، ومن الأمثلة تجد اجازة العالم الجزائري ابن عمار للشيخ ابراهيم السيالة ، كما أجاز ابن العنابي محمد بيرم التونسي ، وأجاز الشيخ التونسي حسين الشريف لأحمد بن السعيد العباسي أبو العباس القسنطيني توفي 1826م ، وتجد أيضا الأديب والنحوي محمد الصالح بن سليمان بن أبي القاسم الطالب الرحموني (1739م-1826م) الذي أخذ علما ومعرفة عن علماء تونس .

الطرق الصوفية : احتلت الطرق الصوفية في المجتمعين الجزائري والتونسي مكانة مرموقة ، وكان لها دورها وتأثيرها على الأحداث التي عرفتها الدولتين ، وقد لعبت دورا فعالا في تولد الصلات الروحية بين السكان ، وقد شهدت منطقة المغرب العربي انتشار واسعا للطرق الصوفية والزوايا خلال العهد العثماني منها المحلية والوافدة ، فالطرق الصوفية مثل الشاذلية والشابية والبوعلية والسلامية والعلوية أصلها من تونس ووجت لها فروع في الجزائر وأما الرحمانية والتيجانية والسنوسية مثلا أصلها من الجزائر وشهدت لها تواجدا ومريدين في تونس وليبيا وطرق أخرى وفدت من بلدان أخرى وأصبح لها أتباع وفروع في الايالتين مثل القادرية والدرقاوية والحنصالية .

.....

المحاضرة الثالثة

العلاقات الاجتماعية بين الجزائر والمغرب الأقصى

العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية:

يتضح للدارس في العلاقات الاجتماعية بين الجزائر والمغرب من خلال تأمله فيها وفي الحياة الاجتماعية أن هذه العلاقات كانت متأثرة بعوامل قديمة وجديدة يمكن تناولها في النقاط التالية :

1) العوامل المؤثرة القديمة :

- الروابط الجغرافية : فالبلدان متجاوران لا فاصل طبيعي مثل الجبال والأنهار الكبرى تفصل بينهما ، فلم يكن هناك حائل طبيعي يحول دون اتصال سكانها واحتكاكهم وانتقالهم من بلد إلى آخر أو ما يمنع من تشابه الحياة الاجتماعية في البلدين .

- الروابط التاريخية : فسكان البلدين متطابقة من حيث العرق بربر وعرب وحتى العناصر الأخرى السودانية والأندلسية والأوربية تكاد تكون واحدة في البلدين . وتعود أصول القبائل البربرية في البلدين الى المجموعات البربرية الخمس الكبيرة وهي : زناتة ، صنهاجة ، مصمودة ، هوارة ، غمارة . أما أصول القبائل العربية في الجزائر والمغرب فتعود إلى ثلاث قبائل رئيسية هي قبائل بني هلال وسليم وهؤلاء من عرب الشمال ، وقبائل بني معقل وهؤلاء ينتمون إلى عرب اليمن ، إضافة إلى الأتراك.

الروابط الدينية : وتتمثل في انتشار الدين الإسلامي وسيادة المذهب السني المالكي لدى أغلبية السكان ، كما أن الطرق الصوفية الأكثر انتشارا في البلدين هما القادرية والشاذلية وفروعهما.

الروابط اللغوية والدينية : وتمثلت في انتشار الثقافة العربية والإسلامية كما تجانست فيهما اللغة العربية واللهجات وطرق ومواد وكتب التدريس .
ونتيجة للروابط المذكورة آنفا والتي كانت تؤلف بين المجتمعين المغربي والجزائري فقد كانت العلاقات الاجتماعية متماسكة وأدت الى تجانس العادات والتقاليد في اللباس ونمط المعيشة والأعياد الدينية والمناسبات .
على أن ماكان يزيد الروابط متانة وعمقا هو تلك الحركة الدائمة والمستمرة المتمثلة في الهجرة والتنقل بين البلدين لمختلف الفئات الاجتماعية ولمختلف الأغراض كالتجارة وطلب العلم وزيارة الأهل والأقارب والأولياء والمشايخ ، وتعتبر فئة المثقفين من العلماء والطلبة والمرابطين ذات تأثير قوي في توطيد وإثراء العلاقات الاجتماعية والثقافية بين البلدين .
2) العوامل المؤثرة الجديدة : يمكن حصرها في العوامل التالية :
الغزو البرتغالي والاسباني : إن هذا الغزو لشواطئ البلدين وماجاورها من المناطق الداخلية الذي بلغ أوجه خلال القرن 16م ، على الرغم من أنه لم يترك أثرا اجتماعيا وثقافيا ذا بال خلال وجوده فيهما الا أنه قد تسبب في خراب كثير من المدن الساحلية التي كان بعضها مثل وهران وبجاية وسبتة وطنجة مراكز اجتماعية وثقافية هامة .
هجرة الأندلسيين: إن تدفق الأندلسيين المستمر الى البلدين خاصة بعد سقوط غرناطة 1492م كان له الأثر المباشر على ازدهار العلاقات الاجتماعية والثقافية ، اذ كان لهم الفضل بعث وإنشاء وتعمير مدن في البلدين مثل تطوان وشرشال والبليدة ، وقد كان الأندلسيين كثيري الحركة والتنقل بين البلدين طلبا للعلم أو بحثا عن العمل والجاه أو لجمع شمل العائلات.
المنافسة بين الأتراك حكام الجزائر وسلاطين المغرب : كانت العلاقات بين حكام الجزائر وسلاطين المغرب تتسم بالعداء في الغالب ، وكان للوجود التركي في الجزائر تأثيراته الواضحة على البلدين ، اذ أدخلوا اللغة التركية والمذهب الحنفي والتنظيمات الإدارية والعسكرية والعادات والتقاليد الاجتماعية والثقافية ، فقد جار السعديون فأحدثوا منصب المفتي رسميا كما أحدثوا مؤسسة استشارية وسميت بالديوان وأخذوا عن الأتراك طريقة ختم الرسائل وتوقيها باليد والطابع ، واقتبسوا الكثير من الأنظمة العسكرية المتبعة لدى الأتراك واتخاذ نفس الألقاب والرتب العسكرية العثمانية ، كما أن بعض المغاربة تأثروا باللغة واللباس التركي واتبعوا المذهب الحنفي.
إن الدارس للعلاقات الاجتماعية بين الجزائر والمغرب خلال الفترة الحديثة يجد أنها اتخذت صورا ومظاهر متعددة تمثلت فيما يأتي :
- الهجرة والتنقل : إن حركة الهجرة والتنقل النشيطة بين البلدين للجزائريين والمغاربة كانت من فئات مختلفة لأسباب ودوافع مختلفة ، تلك الحركة الدائمة التي جعلت الاحتكاك بين الشعبين ولاسيما بين أفراد الفئات الاجتماعية التي كانت تنتقل بين البلدين مثل فئات العلماء والطلبة والتجار والعمال والجنود وغيرها ، وقد جعل ذلك إمكانية قيام علاقات وطيدة اجتماعية بين الشعبين متاحة وأكيدة ، وبالفعل فقد أتاحت حركة تنقل الجزائريين والمغاربة بين البلدين والإقامة المؤقتة أو الدائمة فرص قيام علاقات وثيقة بين الجزائريين والمغاربة ، وتنقسم الهجرة الى هجرة قسرية وأخرى طوعية .
الهجرة القسرية : كانت حركة والتنقل ظاهرة قائمة لكن استلام السعديين والأتراك للحكم في المغرب والجزائر نجم عنه هجرة قسرية للأفراد والقبائل من مختلف الفئات ومن الأمثلة فرار الأمير أحمد الزياني ووزيره المنصور بن أبي غانم الى الجزائر وكذلك فرار أمراء مع أتباعهم من المغرب إلى الجزائر ، وقد ساهمت الهجرة القسرية في توتر العلاقات بين البلدين ولم تساعد كثيرا على توثيق العلاقات بين السكان.
الهجرة الطوعية : وشملت فئات مختلفة مثل الطلبة والعلماء والعمال والتجار والجنود فمثلا هجرة الطلبة كانت تهدف لاستكمالا الدراسة مثل هجرة أحمد المقري وسعيد قدورة الى المغرب كما كانت ظاهرة زيارة الاضرحة من الأمور المعتادة ، والعمال ينتقلون في مواسم معينة من بلد الى آخر كهجرة نواحي غرب الجزائر للعمل في الزراعة في المغرب ثم يعودون الى مواطنهم ، وكان موقف السلط الحاكمة في البلدين مشجعا للهجرة وحاميا لها .

- **المصاهرات :** التي ساهمت في اندماج الأسر الجزائرية والمغربية وهي نوعان : مصاهرات بين بين عامة الجزائريين والمغاربة من مختلف الفئات وهي بعيدة عن الأغراض السياسية . ومصاهرات ذات طابع سياسي بين فئة الحكام في البلدين لا تخو من الأطماع السياسية سعى كل طرف إلى تحقيقها عن طريق المصاهرة .

ومن الأمثلة عن النوع الأول من المصاهرة بين الجزائريين والمغاربة نجد زواج الطالب الجزائري أبي مهدي عيسى الثعالبي من ابنة أستاذه علي بن عبد الواحد السجلماسي ، وقد وفد مع أسرته من الجزائر نحو المغرب واستوطنها في القرن 16م واشتغل بالتدريس . أما النوع الثاني من المصاهرات نذكر زواج بعض الأمراء الوطاسيين والسعديين بنات حكام وموظفين سامين من الجزائر ، بعد لجوء هؤلاء الأمراء الى الجزائر في ظروف صعبة من ملاحقة تهدف إلى السجن والاغتيال. وكمثال على ذلك الأمير الوطاسي أبي بكر بن السلطان أحمد الوطاسي الذي تزوج بعد لجوئه الى الجزائر من ابنة صالح رايس بيلرباي الجزائر (1552م-1556م) ، وتذكر المصادر أن هذا الأخير حاول لدى دخوله الى فاس 1554م أن ينصب صهره المذكور على عرش المغرب ولكن أهل فاس رفضوا ذلك وألزموه بتنصيب الأمير أبي حسون . وكذلك عبد المؤمن بن محمد الشيخ الذي تزوج ابنة حسن بن خير الدين وحصل على مكانة عالية وظل حاكما على تلمسان حتى تعرض للاغتيال بإيعاز من أخيه عبد الله.

وعبد الملك بن محمد الشيخ الذي تزوج من ابنة حاجي مراد الذي كان من الطبقة الميسورة وأحد الوجوه السياسية المعروفة في النصف الثاني من القرن 16م.ولاشك أن المصاهرات التي كانت تقوم بين الجزائريين والمغاربة كانت تساهم في توطيد العلاقات الاجتماعية وتمتين الروابط بين الشعبين وتزيدها عمقا وترسيخا ، ولاسيما تلك المصاهرات التي لا تكون ورائها أهداف سياسية واتخذها حجة لتحقيق أهداف معينة تتعارض مع رغبة أغلبية الناس.

- **حصول المهاجرين على الاقطاعات :** سعى بعض الجزائريين والمغاربة الى الحصول على الاقطاع في مستقرهم الجديد ، فبعض الجزائريين حصلوا على اقطاعات في المغرب عن طريق المنح أو العطاء من حكام المغرب أو الشراء ، كما أن بعض المغاربة ولاسيما من الأمراء والعلماء وأتباعهم الذين هاجروا معهم الى الجزائر والذين منحهم حكام الجزائر الأتراك الأراضي والمال مثل عبد المؤمن وعبد الملك وأحمد وغيرهم من الأمراء السعديين.

تشكل الجاليتين الجزائرية والمغربية : جراء لحرية التنقل بين الجزائر والمغرب للأفراد والجماعات ، ومواقف الحكام من المهاجرين الى بلدهم تلك المواقف التي اتضح أنها سهلت حركة التنقل وأزاحت العوائق التي تعترض المنتقلين من بلد الى آخر ، وقد رأينا أن الحكام يرحبون بالوفدين عليهم ونتيجة لذلك تكونت جالية جزائرية كبيرة في المغرب وجالية مغربية في الجزائر، رغم أن المصادر لم تعطي معلومات مفصلة تخص العدد والتنظيم ، وكذلك طرقة السكن هل كانت أحياء وحارات خاصة في المدن والمنطقة الواحدة ومن أهم المدن التي استوطنتها الجالية الجزائرية فاس ومراكش وتطوان وسجلماسة أما الجالية المغربية فقد قطنت مدنا عديدة مثل تلمسان والجزائر وقسنطينة ، وقد ساهم هذا التمازج في تحقيق مزيد من التجانس في العادات والتقاليد حيث نقل المهاجرين مؤثرات بلدهم الى البلد الآخر.

.....

المحاضرة الرابعة

العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب الأقصى

لقد تضافرت عوامل عدة قديمة وجديدة ذكرت سابقا وساهمت في تسهيل وتنشيط عملية التواصل الثقافي والديني بين العلماء والسكان و كان لها دورها الكبير في نشر العلوم والمعارف النقلية والعقلية بين البلدين الجزائر والمغرب .

مظاهر العلاقات الثقافية: وتتمثل في المظاهر الأساسية التالية :

- هجرة الطلبة والعلماء : تنقل الجزائريين والمغاربة بين البلدين تنقلا طوعيا أو قسريا سواء لطلب وأخذ العلم أو التدريس والعطاء أو للغرضين معا ، وقد تكثفت الهجرة خلال الفترة الحديثة رغم العوائق السياسية والأمنية العارضة ، وقد ساهم المثقفين المغاربة والجزائريون مساهمة ايجابية في تنشيط الحياة الثقافية في الجزائر والمغرب واعمار المراكز الثقافية الجديدة ، اذ كاد لا يخلو أي مركز من

المراكز الثقافية في المغرب خاصة الكبرى منها مثل فاس ومركش وتطوان وسجلملسة وتارودانت دون أن يتصدر عالم جزائري شهير للتدريس فيه ، وقد يجمع مع التدريس وظيفة أخرى مثل الإفتاء ، القضاء ، الامامة والخطابة كعلي المطغري ومحمد شقرون وابن جلال وابن الوقاد وغيرهم من علماء الجزائر الذين تخرج على أيدهم شيوخ وعلماء مغاربة كثر. ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الانتعاش الذي عرفته الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ولا سيما في تلمسان وقسنطينة والجزائر يعود قسم منه على الأقل الى جهود العلماء المغاربة الذين وفدوا على الجزائر واتخذوها وطنا فدور عيسى البوسعيدي في تلمسان وعلي بن عبد الواحد السجلماسي الذي أثرى المعرفة والتدريس فقه وحديث ولغة ومنطق في الجزائر ومحمد بن مزيان الزاتي في قسنطينة في مجال التعليم لا ينكر وعلى يدهم تخرج الكثيرون من طلبة الجزائر وأصبحوا علماء كبار.

وقد نال علماء الجزائر والمغرب بفضل نشاطهم العلمي وجهودهم في المجال الثقافي احتراما وتقديرا عاليا لدى عامة الناس وحظوة ووجاهة كبيرة لدى السلطات الحاكمة في البلدين فأسندوا لهم الوظائف السامية علمية ودينية وإدارية .

المناظرات العلمية والفكرية : لقد كانت المناقشات والمناظرات الفكرية والدينية سائدة في البلدين فلم يمنع تشابه الرصيد المعرفي من اختلاف وجهات نظر العلماء حول بعض من القضايا الفكرية. ونذكر على سبيل المثال المناقشات التي دارت بين المبعوث الجزائري الى المغرب أبي عبد الله محمد الخروبي الجزائري الدار الذي كان عالما متصوفا وبين بعض كبار مرابطي المغرب مثل أبي عمر القسطلي وأتباعه .

المراسلات : وقد كانت المراسلات بين أهل العلم وتناولت أغراض متنوعة فكرية ودينية وأدبية وكانت بين العلماء وبين الطلبة وأساتذتهم وبين كبار مشايخ الصوفية وأتباعهم نذكر على سبيل المثال مراسلات محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفي سنة 1503م إلى علماء المغرب حول التعامل مع اليهود ، وكذلك مراسلات محمد بن علي الخروبي مع خواص أهل فاس ومراكش وأيضا المراسلات التي تمت بين الورنيدي التلمساني المعروف بابن الحاج والإمام محمد وهو من كبار فقهاء وعلماء فاس كما نذكر ردود الشيخ الوزان القسنطيني عن المسائل التي ترد من المغرب ، وأيضا ولا شك أن مراسلات العياشي مع عبد الكريم الفكون تدخل أيضا في إطار التوضيح والاستيضاح عن المسائل. ومن المراسلات أيضا المراسلات بين أبي العباس أحمد بن القاضي إلى أستاذه العالم سعيد المقري يطلب فيه منحه الإجازة العامة فيما له من مروي ومقروء . وكان بين العياشي وأبي مهدي عيسى الثعالبي مراسلات ، كما كانت بين أحمد المقري عندما كان مقيما في مصر مراسلات مع علماء المغرب في أغراض عدة أمثال علي بن عبد الواحد الأنصاري ومحمد بن أبي بكر الدلائي سنة 1631م وقد راسل هذا الأخير بعض المتصوفة والمرابطين يطلبون في إعلان الجهاد على الكفار المحتلين.

الطرق الصوفية : من أهم الطرق التي شهدت انتشارا واسعا في البلدين نذكر الطرق التالية :

الطريقة الشاذلية : وهي مغربية الأصل وتكاد تكون تعاليمها لها السيادة المطلقة في البلدين رغم الازدهار الذي عرفته الطريقة القادرية بعد دخول العثمانيين الى المنطقة ، والى الشاذالية ننسب معظم الطرق الصوفية الفرعية التي نشأت في المغرب والجزائر.

الطريقة الجازولية : التي أسسها محمد الجزولي في المغرب في القرن 15م ، كان لها أتباع في الجزائر وكان لها دور في دعم الأسرة السعدية .

الطريقة الزروقية : التي تنسب الى مؤسسها أبي العباس أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي المتوفي في سنة 1494م ، وقد كان لها أتباع في المغرب والجزائر ومن أشهر أتباعها عبد الكريم الفكون والعياشي.

الطريقة اليوسفية : التي تنسب الى مؤسسها أبي العباس أحمد بن يوسف الملياني الجزائري المتوفي في 1524م كان صوفيا شهيرا وله أتباع كثر في الجزائر والمغرب ، وكانت زاوية رأس الماء بالملياني تعج بالزوار، تعرض أتباعها للاضطهاد من طرف السعديين.

الطريقة الدرقاوية : وتنسب الى الشيخ محمد العربي أحمد بن محمد بن يوسف الملقب بأبي دقاوي الشريف الادريسي ولد بضواحي مراكش في 1737م وهي من الطرق الصوفية التي عرفت انتشارا كبيرا الطريقة الدرقاوية وهي مغربية الأصل كان لها أتباع عديدون في البلدين وقامت بثورات ضد

اللأتراك في الجزائر (ثورة ابن الأحرش ، ثورة ابن الشريف) نتيجة لتسلط الحكم التركي في أواخر عهده .
الطريقة التيجانية : وتنسب للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن سالم المختار التيجاني (1737م – 1815) المولود ببلدة عين ماضي بالقرب من الأغواط ، أخذ الأوراد والعلم عن بعض الطرق الصوفية كالطيبية والناصرية ، شهدت الطريقة انتشارا كبيرا في الجزائر وكان لها أتباع في تونس والمغرب ، ساءت علاقاتها بالحكم التركي واضطر شيخها إلى الهجرة الى فاس .
وطرق أخرى شهدت انتشارا في البلدين مثل الطيبية والناصرية والحنصالية وغيرها .
مراكز التبادل الثقافي في المغرب والجزائر: كانت أهم المراكز الثقافية المقصودة لتلقي العلم أو نشره :
أولا) مراكز التبادل الثقافي في المغرب :
مدينة فاس : تأسست سنة 789م شهدت ازدهارا وتفوقا ثقافيا بفضل جامع القرويين الذي تأسس في القرن 09 م ، وظلت فاس بسبب وجود المساجد والمدارس الكبرى وقربها الجغرافي مقصدا للجالية الجزائرية للتعلم والعمل ، ومن العلماء نذكر أحمد بن محمد العبادي التلمساني ، محمد بن محمد بن العباس التلمساني ، أحمد أبي جمعة الوهراني ، أحمد بن قاسم العقباني ، يحي بن سليمان الزواوي ، أحمد المقري ، موسى بن سعيد الحافظ الزواوي ، علي بن عيسى الراشدي التلمساني ، محمد بن عزوز الديلمي ... .
مدينة مراكش : انتعشت مراكش في مطلع القرن 16م وازدهرت الحياة الثقافية فيها وقد ظلت عاصمة للسعديين فقصدها العلماء من المغرب والبلدان الاخرى ، عرفت بكثرة مساجده ومدارسها أهمها جامع الشرفاء ومدرسته ، ومن العلماء الذين قصدوا مراكش وساهموا في اثراء العلم فيها نذكر محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر فجالس العلماء وناظرهم في عدة مسائل ، محمد بن هبة الله المعروف بشقرون رحل الى فاس ثم مراكش في 1560م وكان فقيها وعالما بارزا توفي في المغرب في سنة 1576م ، أبوطيب البسكري كان عالما ذو شهرة زار مراكش ، محمد بن رأس العين الأندلسي الأصل مكث مدة في مراكش ، عبد الرحمن العنابي من كتبة المنصور السعدي ... .
مدينة سجلماسة : كانت تمثل مركز ثقافي هام بفضل كثرة الزوايا التي تقوم بنشر العلم مثل زاوية تامجروت قصدها علماء وطلبة من المغرب والجزائر .
مدينة تطوان : ساهم الأندلسيون في اعادة بناءها وازدهارها التجاري والثقافي قصدها علماء من الجزائر مثل أبو القاسم بن سلطان القسنطيني ، أحمد بن يوسف الزياني ، أبوعلي الحاج منصور البجائي... .
مدينة تارودانت : تحولت الى مركز ثقافي هام في جنوب المغرب قصدها علماء جزائريين مثل الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني المعروف ابن الوقاد .
ثانيا) مراكز التبادل الثقافي في الجزائر: كان علماء المغرب يزورون المراكز الثقافية المختلفة في الجزائر لتحقيق أغراض شتى منها طلب العلم ونشره أو لمجرد الزيارة بمناسبة الحج والسفارة للتعرف على علماءها ومجالستهم ، ونذكر أهمها :
مدينة تلمسان : كانت من أهم المراكز العلمية في الجزائر اشتهرت بمدارسها الأنيقة ومن أبرز علماءها سعيد المقري خلال القرن 16م ، لكنها مكانتها السياسية والثقافية وهجرها كثير من العلماء ومن أبرز علماء المغرب الذين زاروا تلمسان أبو عبد الله محمد بن أحمد اليسيتني المتوفي سنة 959ه جاء لأخذ العلم عن علماءها ، الحسن الوزان زارها مرارا ، عيسى البوسعيدي استقر بها واشتغل بالتدريس ، محمد الحاج السلطان الدلائي قصدها بعد خرب مولاي الرشيد العلوي زاويته 1668م واستقر بها .
مدينة الجزائر: غدت مركزا ثقافيا مقصودا من قبل علماء المغرب بعد أن أصحبت عاصمة للبلاد ومن مثقفي المغرب الذين زاروها حسن الوزان ، الفقيه عبد الواحد بن محمد المكناسي استقربها وتوفي في 1580م ، محمد السوسي الفاسي استوطنها وتوفي بها 1614م ، علي بن عبد الواحد السجلماسي اشتغل بنشر العلم من طلبته أبومهدي عيسى الثعالبي ويحي الشاوي وافته المنية 1647م ، محمد بن سليمان الروداني أخذ عن علماءها توفي بالشام سنة 1684م ، التمجروتي الذي زار الجزائر في طريقه لاسطانبول في 1586م وجالس بعض العلماء... .

مدينة قسنطينة : عرفت بمراكزها الثقافية وبكوكبة من العلماء العظام أمثال عمر الوزان ومحمد العطار وعبد اللطيف المسبح وأبومحمد بركات وعبد الكريم الفكون ، قصدها المغاربة طلبا للعلم مثل محمد بن أمد اليسيتني ، سعيد الماغوسي الصنهاجي ، محمد السوسي الفاسي ، أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي ، أحمد الفاسي ... . كما اشتهرت مراكز ثقافية أخرى لكنها أقل شأنا مثل مليانة وزواوة وبسكرة وقد عرفت هذه المراكز بمساجدها وزواياها ومكتباتها وعلماءها وكان لها دور كبير في نشر العلم في البلدين الجزائر والمغرب.

والجدير بالملاحظة أن العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب كانت علاقات عفوية طبيعية لا صبغة رسمية فيها ...إذ لم تكن موضوع معاهدات رسمية بين البلدين تحددها وتقننها ، وإنما فرضتها الروابط العديدة التي كانت ومازالت تربط بين الشعبين من روابط بشرية ولغوية وثقافية وجغرافية . إن الوحدة الدينية والمذهبية والطرقية والتعليمية والفكرية في البلدين كانت تتدعم وتتعزز على الرغم من حدوث بعض الطوارئ التي طرأت على البلدين كوجود الغزاة الأسبان والبرتغاليين على شواطئ البلدين بلغتهم وديانتهم وعاداتهم المختلفة والدخيلة عن المنطقة وكذلك دخول الأتراك بلغتهم المختلفة ومذهبهم الحنفي . فالإسلام استمر دين الأغلبية الساحقة في البلدين ولا يشكل اليهود والمسيحيون الا أقلية ، والمذهب السني المالكي استمر مذهبا غالبية السكان مع وجود المذهب الحنفي والاباضي. والعربية استمرت لغة الثقافة في البلدين وبقيت اللغة الامازيغية محصورة في بعض المناطق ، أما التركية فبقيت لغة الإدارة في الجزائر، واللغات البرتغالية والاسبانية بقيت محصورة في مناطق الاحتلال وحتى المهاجرين الأندلسيين تعلموا اللغة المحلية .

.....

أهم المراجع :

- عمار بن خروف : العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517 – 1659 م ، رسالة ماجستير ، اشراف د. ليلى الصباغ ، جامعة دمشق ، 1983 . نسخة الكترونية
- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ج2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 .
- حصام صورية : العلاقات بيت ايالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر ، رسالة ماجستير ، اشراف د. عبد الحميد بن نعيمة ، جامعة وهران ، 2013 . نسخة الكترونية
- كوثر العايب : العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات (1711-1830) ، رسالة ماجستير ، اشراف د. محمد السعيد عقيب ، جامعة الوادي ، 2014 . نسخة الكترونية